من خمس عشرة
سنة في المتحف

موعظة شهر الورود

للآنسة « مي »

دنا المساء فهزني طرب الربيع ورغبت في الخروج والتجوال لاشارك الطبيعة في افراحها كأني حسبت جدران البيت تقطع الصلة بيني وبينها ، وتشعرني بأن الكون حرمني من مشاركة موجوداته الهاتفات بأريج ايار بين الغصون وبزينة الارض العروس

خرجت وليس لي وجهة معينة اطلب بداهةً احياء قلما اخترقتها . فسرت في شارع قصير على مقربة من شارعنا كأن قصي الشيقظة لبث داعي الاخضرين المحيطين بهاتيك المنازل اخضر يبسط على ارض الحديقة طنفسة مخملية ، وأخضر يتعالى ظليلاً فيعكس طيف اثنائه على وجه الجدران الشاهقات

سرت متمهلة أتنقل من رصيف الى رصيف ، والشمس آخذة في التحدر وقد انكسرت حدتها ولطف نورها حتى بدت الاشعة حزينة بما مازجها من معاني الفراق . وما كان أندر المركبات والسيارات في ذلك المنعرج ، والمارّون يتبادلون نظرة كأنهم لقلتهم يقولون « أرأيت ؟ لا أحد الاّ أنا ! »

اتيت على آخر الشارع فنفذت منهُ الى شارع رحب طويل هو شارع ماريت باشا المؤدي الى دار الآثار المصرية . فخطوتُ مترددة بين العودة من حيث أتيت ومتابعة المسير الى الامام . واذا بناقوس يدق على مقربة مني ولرنينه ازاء الغروب دويٌّ متوسل حنّان . فالتفتُّ الى جهته فوجدتني امام كنيسة صغيرة رأيتها مراراً ولم ادخلها مرة

وقفت اتأمل واجهة الكنيسة وأدير نظري في الحديقة التي تتقدمها وكانت تجتازها بعض السيدات . فلما توارين وراء باب الكنيسة تبادر اليّ انهُ يُحتفل بصلاة الشهر المريميّ في هذه

الساعة من كل يوم على طول الشهر ، لان ايار (مايو) مكرّس للعذراء . ولم يعد ينقضي الآن أُري فتاة تسير بخطوات عصفور في ثوب ازرق كزرقة الاحلام وتتوارى هي ايضاً وراء باب الكنيسة لاجد مني شوقاً الى مشهد الهياكل وتوقاً الى رائحة البخور . اضحكوا ما شئتم ، انتم الزاعمون ان الثوب المليح دعابي ، وان زيهُ البسيط وتخريعهُ الدقيق كان له مع المرأة مني احاديث

اما الكنيسة فكانت مملوءة بالمصلين ولم يخل في مقاعدها الآ مكان واحد جثوت عنده قرب الكاهن الراكع امام المذبح يتلو المسحة باللاتينية فيرد عليه الجمهور بلهجة الخاشع المنيب

لا اعرف شيئاً اجمل واسمى من الصلاة في اي دين من الاديان ، لانها رفع النفس الى اعلى درجات الارتقاء ومحاولة الدنو من روح الحياة الكبرى . هي مناجاة العابد للمعبود ، هي شكر المخلوق للخالق واستطافهُ لاستزال عطاياه . وما اعذب هذا الاعتقاد ان في السماء هناك وراء جميع القوى والجاذب الكونية الهاً قديراً لا يقضى دونهُ امر ، لديه النعم يفيضها على الحاجة البشرية ، وعزة يتلاشى حيالها ضعف الانسان ، وجودٌ يمسُّ البرايا فتموج وتتنوع وتنبض بالحياة والقوة والتحول . الآ اني لا استحسن الصلاة الآلية المستطردة على وتيرة واحدة دون ان يشترك فيها العقل والقلب ، — الصلاة المتعاقبة ألفاظها بين الشفاه والاصابع تعد منها ارقاماً معينة — لانها ايست الى التنويم المغناطيسي منها الى الايقاظ الروحي . قد يكون هذا التأثير من تفنن الشيطان في التجربة والخداع . قاتله الله ! لقد وسوس في صدري حتى شتت افكاري وحملني على احصاء الحاضرين . وكانت النتيجة اني جزمت بأن النساء اسبق الى دخول السماء نسبة الى عددهن في الكنيسة ، اذ لم يكن بين مائتي امرأة الآ رجلان وخمسة ارباع . أما الرجلان فرجلان ، وأما الخمسة الارباع فصبيان صغار خمسة جاءوا مع امهاتهم . وكم كنت ظالماً في الاحصاء والحكم ذلك اني عند الخروج وجدت جمهور الرجال في مدخل الكنيسة يقفون هناك مراعاة للسيدات وتكرماً منهم لهن بالمقاعد

وظلّ احتّاس الوسواس يجربني فحسن لي تفحص المعبد فتفحصت جدرانهُ وما قام عليها من صور وتماثيل ، وهندستهُ وما ميزها من نقوش ورموز ، وهياكلهُ وما تناسق عليها من صلبان وطاقات ازهار — تلك الازهار ذات الانحناء السريّ تتخللها شموع كأن لهبها تذكارات لادعة في شفق الصبوة والنسيان

لكل شيء في العالم نهاية . صمتت الاصوات فمشى الكاهن الى الدرابزون امام المذبح الكبير وبدأ موعظتهُ الايطالية . وكان يقول اشياء عادية بصوت مثبت واشارتهُ مرتبكة كاشارات التلاميذ في حفلة توزيع الجوائز . ولكن لم يلبث ان ارتفع صوتهُ وركزت هيئتهُ واتسعت اشاراتهُ ولمعت عيناه وهو يقول :

« الى مريم ربة هذا الشهر الجميل يجب ان تلتجيء النساء جميعاً . فالامهات يتطلعن منها التجمل بالصفات التي احاطت بها ابنها يسوع : وهي الحنان والحصافة والمحبة الصادقة التي لا زهو فيها ولا غرور . لقد كانت ، وما زالت ، وستبقى ابداً اسمى مثال للامومة القدسية ، تتميز الامهات وراءها مستوحيات اساليب التربية والتهذيب

« اليها يلتجيء اليتامى الذين لا امَّ لهم فيجدون في حضنها الراحة والعطف والمساعدة . اليها تلتجيء العذارى لانها ابهى مظهر للطهر والحشمة والوداعة

« اسمعن يا اخواتي يا نساء القاهرة ! اليكنَّ أوجه هذه الكلمات فأقبلنها لانها خلاصة اعتقادي ، تطلعنَ الحشمة من مريم امتنَّ بنات اليوم التاسيات . ما وقار المرأة واحترام الناس لها الاَّ نتيجة حشمتها وعفتها . لا قد تكنَّ عفيفات طاهرات في قلوبكنَّ ولكن كيف يصدَّقكنَّ الراؤن ويحسنَ الظنَّ بكنَّ وانتنَّ تسرنَ في الشوارع بهذه الازياء الحديثة التي تعري منكنَّ العنق والنحر والذراعين ، هذه الازياء الشريرة بأقمشتها الشفافة ، الشريرة بقصرها وضيقها ، التي تعدم لابسها كل هيبة وجلال

« أتحب تتزينَّ ؟ أتحب تبهن في هذا التهتك ؟ ألا فاعلمنَّ اذاً ان حب الرجل لا يكتسب بالتهتك بل بالتكتم . الرجل محارب من طبعه يهوى الفتوحات ويستميت في الاخضاع بينما هو يعرض عن كل ما لا يكلفهُ ألماً وكداً . فلماذا يسعى اليكنَّ وانتنَّ تخطرنَ في كل مكان ؟

« ام انتنَّ تتزينَّ للجمال ؟ ولكن هل الجمال في الزينة والاناقة وملاحة الوجه وتناسب الاعضاء ؟ كلاَّ ! كم من امرأة تُحسب آية تناسب وملاحة وهي مع ذلك غير جميلة اذا سرَّ امرؤ بمشاهدتها مرة او مرات فهو لا يتسنى مجالستها ويملُّ كلامها ومخاقتها بعد ان يعرفها قليلاً اذ يرى ان احسن ما فيها هو هذا الشيء الخارجي الذي لا يكفي لامتلاك القلوب واكتساب الارواح

« ألا فاعلمنَ ان النساء اللاتي كنَّ ذوات أثر في عواطف الرجال وذوات سلطة وشوكة

حزنَ جمالاً اعظم من هذا الجمال الخسيس وأبقى . لقد كان لهنَّ جمال النفس الذي تزيده الايام رونقاً بينما هي تحكُّ البشرة هنا وهناك وتوسعها كل ساعة ذبولاً واتلافاً . كان لهنَّ جمال العقل وجمال القلب ، وجمال حسن التصرف ، وجمال اللطف الصحيح ، وجمال المحبة الطاهرة العميقة المستخفة بالمظاهر التي لا يقرها جمال الشباب وجمال الاناقة وجمال الازياء

« أتعلمنَ ما هو الشباب والجمال ؟ هما حديقة تملأ الازهار النضرة والعطور المنعشة ، يقف امامها المارُّون معجبين . وما هو الاَّ يوم وليلة فتمرّ العاصفة صارعة اشجارها ، مبددة ازهارها ميتة عطورها ، وتغادرها خالية الاَّ من اكوام التراب والاغصان المكسرة . هذا ما تسمونهُ جمال الشباب اي جمال القشور . اما الجمال الآخر فهو جمال الجوهر . الآلام تطهره ، والمصائب تجلوه ، والعواطف تمنحهُ قوة وبهاءً . هو الجمال الذي يبقى ناميًا مدى الحياة . هو مساعد العائلة ، هو مساعد الزوج ، هو مهذب الاطفال ، هو السلام والخير والبركة . ولتحفظه المرأة . . . اصحنَ ايتها السيدات . . . لتحفظ المرأة ذلك الجمال . عليها ان تكون وردة تحيط بها الاشواك . . . . »

انتهت الموعظة . فعزف الارغن الشجيّ وابتدأ الزياح فاشترك الجميع في الترتيل وتصاعدت الشمائر نحو الله ملحنة انغاماً وعبقة امام هيكله بخوراً

وعند خروجي من الكنيسة كان الظلام يغمر المدينة ومضيئو المصابيح يجرون في الشارع حاملين المشاعل . فوقف احدهم يتفرج على السيدات وهو يفترُّ عن أسنانه البيضاء ، ويثني على كل مارة الثناء المعتاد قائلاً بلهجته المصرية الفصحة « انت يا واد يا حلو ! انت باللي زي الباشا ! انت يا واد يا حلاوة »

هذه هي موعظة شهر الورود : على المرأة ان تكون وردة تحيط بها الاشواك . وما « اشواك » الوردة النسائية غير التكتم والحشمة والطهارة كما قال ذلك النفس . فان عجبتم اليوم لهذا الكم الطويل الذي يتعثر قلمي بأذياله فاعلموا ان سببهُ موعظة شهر الورود . وان اعرضت عن ذلك الثوب الشفاف الساحر واستبدلتهُ بهذا الشبيه بثوب ايبا الواعظ لكثافته فما سببه الاَّ موعظة شهر الورود . وان غادرتكم الآن ، فما ذلك الاَّ لأني اريد ان اسمع موعظة شهر الورود مرة اخرى